

جهود الأفراد في ميدان الإصلاح الاجتماعي

قرأت في الشهر الماضي، بحثا للكاتبة الأمريكية "دورتي كافيلد" نشرته بمجلة "نداء الطفل" الأمريكية. وكان البحث يدور حول إيواء الأطفال اللاجئين، الذين حرموا من بيت وأبيهم، أو عائل يرمي شؤونهم، نتيجة للحوادث القاسية، والمحن المدمرة، التي يجتازها العالم في هذه الحرب الوحشية.

وللكاتبة شهرة واسعة في العناية بمسائل الطفولة، وقد ذاع صيتها في هذا المضمار، في الحرب الماضية في فرنسا. حيث كرست جهودها، لإنشاء دار تؤوى الأطفال، الذين فقدوا الأهل والعائل، في ميادين القتال، وأصبحوا مشردين في زحمة الكوارث والخطوب.

ولم تتوقف تلك السيدة الكريمة، من مواصلة جهادها النبيل، في سبيل الأخذ بناصر هؤلاء الأبرياء، من الأطفال والمساكين، فلم يمنعها كبر سنها، عن أداء رسالتها السامية، بل شعرت أن تقدمها في السن، قد حتم عليها أن تشارك بنفسها، في بث دعوتها للأخذ بناصر الصغار، وحماتهم من شر ما يتعرضون له من التشرد والبؤس، وما يستتبعه حتما من نتائج خطيرة.

وتقوم هذه السيدة الآن بمهمتها، بعد أن فقدت قوة الشباب وحيويته، بنفس الإيمان الذي كان يتدفق فيها وهي في بداية دعوتها، حينما كانت في الخامسة والعشرين من عمرها. وهي هنا قد أضافت إلى إيمانها، وعاطفة الخير فيها، تجارب الأيام، واكتناه أسرار المجتمع وخصوصا الطبقة الفقيرة منه.

وها هي ذى اليوم تسخر قلمها، وتنفق إرادتها في هذا السبيل، داعية إلى الأخذ بناصر أولئك البؤساء، مساعدة إياهم بالحلماء، مقيلة لهم من عثارهم. فله ما أروع ما تقوم به هذه السيدة الفاضلة، وكم من أمة تمنى، لو كان بين سيداتها، من هن في مثل وطنيتها وجهادها.



ويقيني، أن علاج الطفولة المشردة، هو أول ما يجب أن تنبج إليه عناية الأمم، التي تروم النهوض والرفعة. ونقد تنبه الكتاب والمفكرون، إلى هذه الحقيقة الصارخة، فخصوصا بجانب كبير من عنايتهم. فنحن نرى الشاعر الفرنسي الكبير "فيكتور هيجو" يلفت الأنظار،

إلى ضرورة العناية بالأطفال المشردين ، في كتابه الخالد "البؤساء" الذى خلد فيه صورة الطفل المشرد "جافروش" الشهيرة والذى جعل منه رمزا للأطفال المشردين .

وكذلك ساهم بقلمه ، في سبيل الطفولة الممذبة "تسالس ديكتر" الكاتب الانجليزى العظيم ، والكاتبة الأمريكية "هاريت ستاد" ، تلك السيدة التى أثارى حرب الشمالين والجنوبيين فى أمريكا ، فى سبيل الطفولة الممذبة من الجنس الأسود ، بكتابها التاريخية . وكذلك "مكسيم جوركى" الكاتب الروسى الشهير .

ومن أظهر الأعمال الخيرية ، التى دعمتها أيدي الوطنيين المختصين ، معهد الفنون الجميلة ، المرتجل الذى قام به غنى أمثل ، اسمه ص . س . فلايشر . وهو من أهل مدينة فيلادلفيا ، بالولايات المتحدة . ومن الملاحظ أن أهل تلك المدينة مشهورون بالمرءة والاحسان وأخذ الفنى بناصر الضعيف وتلخص قصة انشاء ذلك المعهد فى أن المستر "فلايشر" كان يسير ذات يوم فى شارع "بينبردج" القائم فى حى فقير بفيلادلفيا ، فأبصر بثلاثة أطفال لا تزيد سن الواحد منهم عن الاثنى عشر عاما ، يرتدون أطارا بالية رثة ، وقد وقفوا أمام دكان حفير حيث تعرض فى واجهته لوحات رخيصة . وكان الأطفال الثلاثة يتأملون تلك الصور بدقة وانتباه ، وكان المنظر الذى أثار التفاتهم منظرا رقيقا من صنع نقاش غير خبير يمثل قطعة أرض مزرعة ، يظلمها صحاب قائم شديد السواد وقد لطخت بالألوان تفلطحا ، وختت اللوحة من قواعد الفن ، فضلا عن خلوها من الجمال وفقدانها للروح الفنى ، ولكن الأطفال وجدوا فيها ما اجتذبهم ونبه احساسهم الكامن . وإذا بأحدهم يقول : إنها جميلة . فيجيبه الثانى يخيل إلى أننى أستطيع ولوج هذه الأرض والسير تحت صحابها القائم . ميلا على قدمى . فاستمع المحسن الكبير إليهم وخطر بباله أنه يستطيع أن يقوم فيهم هدا الأاحساس الفنى ، وأن يخفى فيهم عاطفة الشعور بالفن والجمال فتقدم إليهم وعرض عليهم أن يأووا إلى دار يمارسون فيها النقش والتصوير بأنفسهم دون أن يكفوا نفقة ما ، على أن يقدم لهم الطعام والكساء . فقبلوا عن طيب خاطر ، وبدءوا عمهم تحت إشرافه وإشراف فنان تطوع لتعليم هؤلاء الأطفال ، فله يعض شهر حتى ظهرت فيهم مواهب فنية نادرة ، ولم يبشوا أن انضم إليهم أتراب وأشباه أتوا بالعبج العجيب فى التصوير والتأوين . وقد احترق بعضهم صساعة انحت فتفوقوا وصاروا من المبرزين فى ذلك فن الجميل وأطلق المستر "فلايشر" على ذلك المكان اسم "جرافيك سكوتش كلوب" أى نادى التخطيط والنقش وقد اضطر المستر فلايشر أن يبنى دارا أوسع وأكبر من الأولى نظرا لزيادة الإقبال على ناديه ، وكان المبنى الجديد هادفا لخصى وهجرة أبناء الحى ، مما كان يقابل من جانب المستر "فلايشر" بالتسامح ، بل كثيرا ما كان يدعو هؤلاء

المعدين لزيارة ناديه، فكان يخرج من هذه الزيارات بأصدقاء جدد وطلاب جدد أيضا . ولم يلبث أن أقبل على ناديه أكثر أطفال الحى تقريبا ، وتخرج عنده فتان سرعان ما كان اسمهم في طليعة قائمة رجال الفن ورواده، حتى أنه أوفد على نفقته بعثات إلى أوروبا استطاع أعضاؤها أن يحصلوا على أعظم درجة في الفنون من جامعة روما، وهى الجائزة التى لم يحصل عليها إلا أمثال حفار المعادن الشهيرة شارل بيشوب وغيره من أمثال ليوبولد سيفرت النقاش العظيم ، ونبتون سبرونس المصور البارع، وآلين بولايسك وهو أحد الأطفال الثلاثة ، وقد تبغ في رسم المناظر الطبيعية كالمُنظر الذى كان معجبا به منذ خمسة عشر عاما .

وقد صار للعهد منحرف كبير يعرض فيه القديم والجديد من كل فن ، وأخذت مدن كثيرة تقلده وتفتح أبوابها للأطفال المشردين .

وقد بلغ ما أنفقه مستر فلايشر على ناديه أو معيذه ما يقرب من المليون دولار أى ما تسمى ألف جنيه ، وقد ربح الجائزة التى خصصها مستر ادوارد بوك للاقاطين الذين قدموا عملا نافعا للوطن سنة ١٩٢٤ كجاريح ما قيمته عشرة آلاف دولار ووساما ذهبيا .

واننى لأؤكد أن المستر فلايشر لم يكن فى حاجة إلى ربح الجائزة فهو قد ظفر بأعظم جائزة صندا ما انتشل من وهدة الفاقة وظلمات الجهل والفقير أطفالا برآء أصبحوا فيما بعد أعلاما على الفن الخالد ، ووق بلادته شرمستقبلهم المظلم الخطر على المجتمع . لقد كسب عند نفسه كسبا لا يعدله كسب لأنه أخرج ابلاده رحالا نافعين .

ويقيني أن الانسان الصالح ليس هو الذى يصلح من شأن نفسه وأسرته فحسب ؛ بل هو الذى يساهم فوق ذلك بقسط وافر فى الأخذ بيد أبناء وطنه فى أية ناحية من النواحي التى تخرج عن نطاق عمله وأسرته ونشاطه العادى ، فيجب أن يكرس كل فرد فى المجتمع جزءا من وقته ويخصصه للنشاط الاجتماعى العام ؛ فإنه يكفى أن تقوم الحكومة بمجهودها الخاص نحو اصلاح المجتمع، فهى وان كانت متمتعَة فعلا بالنفوذ وبالمال، إلا أنها فى حاجة الى يد كل فرد من أبناء الوطن، تشد بها عضدها كى تمضى بقدام ثابتة نحو الكمال المنشود .

ولا تزال حكومتنا تخصص من ميزانيتها ومن مجهودها الشئ الكثير فى سبيل انقاذ الطفولة المشردة ، وقد أنشئت المؤسسات الكبيرة التى تاوى هؤلاء الأطفال البؤساء ، ولكنها مازالت فى حاجة الى عون الأفراد على أداء رسالتها السامية والبلوغ بها حد الوفاء والكمال .

فتحن لو مررنا في العاصمة، في ميدان المحطة مثلا وتحت قواعد تماثيل العطاء، فاننا نرى بعض هؤلاء الأطفال يفترشون الأرض ويلتحفون السماء وقد يكون بين هؤلاء الأطفال من له شأن كبير في نهضة الأمة لو أحسن توجيهه .

نحن في حاجة إلى يد كل فرد في الأمة لتعمل لنصرة المجتمع وتمسح دمة المحتاج، وتأوى الشريد وتطمم الجائع وتكسو العريان، نحن في حاجة إلى المواطنين الصالحين الذين لا يقنعون بما تقدمه الحكومة من مجهود، فالحكومة مهما فعلت فهي في حاجة إلى مساعدة الأفراد كل بما يستطيع، وإني لو اتقنت أن كل فرد من أفراد الأمة ذات الماضي المجيد يستطيع أن يقدم في كل لحظة خدمة لبلدي ووطنه .

وهنا تقف هتية لنحي تلك الجماعات التي أخذت على عاتقها النهوض بالإصلاح الاجتماعي والدعوة إليه، نحي فيها أطيب وأسمى شعور، تطمح الأمم لأن يسود قلب كل مواطن نزوع نفسه إلى الخير، وتفرغ من المناظر الأليمة التي يراها بين أفراد أمته وأبناء وطنه .

ففي أوربا نرى الفنانين، يساهمون في الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي عن طريق فنهم، فهام المشالون ينصبون في باريس تماثيل من صنعهم تمثل الطفولة المعذبة، وتماثيل أخرى تمثل الأمومة المرحقة، وغيرها تبرز معنى الجوع في ملامح الرجل والمرأة والطفل، وفي إنجلترا تماثيل رائع اسمه "تاج الحب" يمثل الأمومة والطفولة البائسة، وفي الدانمارك أسست جماعة الفنانين مصنعا للمشروبات خصصت إيراده للانفاق على نواحي النشاط الاجتماعي في كوبنهاجن... وغير ذلك كثير من المؤسسات الاجتماعية التي تهوم دليلا رائها حل ما ينتج في نفوس الأفراد والهيئات والجماعات، من حب الخير والإصلاح، والنزوع إلى الأخذ بيد أبناء وطنهم، والمساهمة بقسط وافر في رفعة شأن بلادهم .

وإني لأرجو أن يسود هذا الشعور الإنساني النبيل بين أبناء أمتنا العزيزة، حتى نصل ببلدنا إلى ما نبتغي له من مجد ورفعة، ظل أهل معمر العقليم، يملكنا المحبوب فاروق الأول حفظه الله ورعاه ما